مجلة الإحياء، المجلد: 21، العدد: 28، جانفي 2021، ص - ص: 107 – 120
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

اللغة الصامتة في العملية الاتصالية في القرآن الكريم
سورة مريم نموذجا

The silent language in the communicative process In the holy Quran Surat of Maryam as a model

د/ سعيدة درويش
كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة 1
saidad25@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2020/09/30 تاريخ القبول: 2020/12/22

الملخص:

يهدف المقال الموسوم ب "اللغة الصامتة في العملية الاتصالية في القرآن الكريم/ سورة مريم نموذجا" إلى الكشف عن أهمية اللغة الصامتة، أو لغة الإشارة، أو لغة الجسد، في القرآن الكريم، من خلال آيتين كريمتين في سورة "مريم"، فيهما أمرٌ للسيدة مريم عليها السلام، بالصوم عن الكلام في موقف خطير وجليل؛ إذ يتعلق بالعِرض، ثم الإشارة لسيدنا عيسى عليه السلام وهو رضيع في المهد، كي يكلم الناس. وكسؤال رئيس: كيف يحقق الصمت، أو اللغة الصامتة، ما ينبغي أن تحققه اللغة الصائتة في قصة مريم، من خلال الآيتين الكريمتين السادسة والعشرين والتاسعة والعشرين؟ ثم بعد ذلك، وكأسئلة فرعية: ماهي اللغة الصامتة؟ وماهي خصائصها؟ ولماذا أُمرَت بها السيدة مريم في موضع خطير؟ وقد تم اعتماد المنهج الوصفي التحليلي في هذا المقال.

و من خلال البحث، ثبت أن لغة الصمت قد تفوق لغة الصوت، من حيث:

- تبليغ الرسالة وتوضيحها، أو مناقضتها ودحضها. أو توكيدها ونفيها.
- إن الصمت نوع من الخروج عن منطق الأسباب، إلى منطق الروح.
- رفعة مقام من يستخدم الصمت، فلغة الإشارة حققت لمريم مع قومها ما أشعرهم بالمهانة.
- لغة الصمت، هي لغة الأنثى بامتياز..

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ الإشارة؛ اللغة الصامتة؛ لغة الجسد؛ سورة مريم.

Abstract:

The article titled **"Silent language in the communicative process in the holy Quran/ Surat of Maryam as a model**", aims to reveal the importance of silent language, sign language, or body language, through two verses in Surat Maryam, in the holy Quran, and in which God ordered Maryam (mary) to fast on speaking, in a dangerous and delicate situation; as it relates to the honour. Then to refer to Jesus (the peace of Allah be up on him), as a baby in the cradle, to talk to people. So how can silence, or the silent language achieve, what the speaking language should achieve? And implicitly, what is the silent language? And what are its characteristics? And why it was recommanded to Maryam to apply it? This article has adopted the Descriptive Analytical method.

It has been proven in this research that the language of silence has exceeded and surpassed the language of sound, in terms of:

- It communicates and clarifies the message, or contradicts it, and refutes it. Or asserts and deny it.
- Silence is a kind of departure from the logic of reason, to the logic of the soul.

-The Raised place of who use silence, and the sign language, achieved for Mariam with her people, which made them feel humiliated.
- The language of silence, is the language of the female with distinction.
Keywords: The language, the sign, the silent language, the body language, the surah of Maryam**.**

تمهيد:

يتحدث الناس كثيرا لإيصال رسائلهم المتنوعة، فيعرضون فكرة، أو يقدمون حجة، أو يرفعون التماساً، أو ينشدون الأغاني للتعبير عن مكنوناتهم وأحوالهم. ويرتقي مستوى الرسالة مبنًى ومعنًى، ليكون وحياً من الله عن طريق رسله لعباده، ويأتي كلّ ذلك في كلامٍ ذي ألفاظ ورموز ومعانٍ متنوّعة الدلالات والمقاصد.

لكن ما معنى أن تُؤمَر مريم –عليها السلام- بالصوم عن الكلام، وبتوظيف لغة الجسد والإشارة في موضع بالغ الدقة والخطورة، ويتعلّق بالشرف والعِرض، وفي بيئة ساد فيها الظلم والاضطراب. فلقد "كانت الحياة التي يعيشها بنو إسرائيل بائسة، فقد حرّفوا دينهم وأفسدوا عقيدتهم، وعاثوا في الأرض فسادا، وأضحى الواحد منهم لا يأمن على نفسه غدر الآخر" (كهوس، 2016). ولأنها الصدّيقة والمصطفاة بدليل قوله تعالى: ﴿وإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينْ﴾ (آل عمران 42)، فإنّ العبرة من قصتها -حتما- جليلة وعظيمة.

ومألوف أن تتم الاستعاضة عن اللغة المنطوقة، بلغة غير منطوقة تتجلّى في حركات الجسد، ونبرات الصوت، والإشارات المعبرة عن المقاصد والأغراض والمشاعر والأحاسيس، فهي وسيلة من وسائل الاتصال، ولكنها غير لفظية وغير ناطقة. وتسمى هذه اللغة عند علماء الاتصال بـ (اللغة الصامتة) (عرار، 2006). لكنّ المألوف والمنطقي - أكثر- أن يتولّى الناس الدفاع عن قضاياهم بالحِجاج والبرهان المنطوق في موضع المواجهة والجدال.

ومن هنا جاء التساؤل في هذه الدراسة حول تحقق العملية الاتصالية، وانتقال المعلومة عبر طاقة وقوة "الصمت"، وقناة الإشارة والرمز ولغة الجسد، في قصة السيدة العذراء والسيد المسيح -عليهما السلام- حين تعلّق الأمر بمسألة مصيرية لامرأة، ورضيع، وأمة، ورسالة، من خلال قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ اِنْسِيًّا﴾ (مريم 26)، وقوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم 29). فينبثق ذلك التساؤل المشروع والمُلِح: هل المقام في تلك المواجهة بين مريم عليها السلام وقومها مقام سكوت، وصمت، وإشارة جسدية غير لفظية، تحقّق ما يحققه الاتصال اللفظي؟ وكل ما يمكن أن يتفرّع عن هذا السؤال الرئيس، من أسئلة فرعية حول مفهوم اللغة الصامتة، وعن سرّ الصمت، وعلاقة ذلك بالعملية الاتصالية، بل وبالمرأة في تناولٍ ضيق من حيث المساحة، ومن دون توسع في الموضوع.

أولا: أهمية وسائل الاتصال في الماضي والحاضر

تعدُّ الأهميةُ المتزايدةُ للاتِّصال في حياة الإنسان، وكل العوامل والدراسات المرتبطة بهذه الأهمية، والتي تؤثر فيه وتتأثر به، هي الدافع الحقيقي للاتجاه إلى التركيز على الاستفادة منه ومن مزاياه، خاصة وأن وسائل الاتصال بدأت تتطور وتتعقد تدريجيا، لتصبح أكثر ارتباطا بتحسين وتطوير الخدمات التي يحتاجها الإنسان والعالم من حوله، سواء تعلق الأمر بالاستخدام الشخصي لوسائل الاتصال، أو بصورة جماعية لفعاليات الاتصال كالتعرض الانتقائي أو الإدراك الانتقائي (محمد حسين، 1984).

وقد ساعدت وسائل الاتصال على انتشار المعرفة والمعلومات بين الناس في جميع أنحاء العالم، فالمؤلفون والكتّاب –مثلاً- ينقلون معارفهم من خلال كتبهم، والمؤسسات من خلال تبادل الأفكار مع العملاء، والطلاب مع أساتذتهم وهكذا.

فالاتصال يُعَد أساس كل العلاقات الإنسانية؛ إذ يبدأ تشكل العلاقات من الحوار والتفاعل ومبادلة الآراء، ومن ثَم يتطور إلى علاقات إنسانية قد تدوم لفترات طويل، وبذلك تصبح الحياة ممكنة بين الأفراد والمجتمعات. وفي هذا السياق يرى هادي نعمان الهيتي، أنه لولا الاتصال بين الأفراد، لما وجدنا وشائج تربط بينهم، ولَمَا وجدنا مجتمعا إنسانيا، بأي شكل من الأشكال، ولأمست حياة كل فرد وكل مجتمع معزولةً عن الأخرى، وأنه لا أحد يستطيع أن يتصور الحالة التي تحياها الإنسانية، لو لم تكن هناك عمليات اتصالية، وهو يؤيد فكرة توفير الفرص للاتصال الثقافي لكون هذا الأخير هو محور تحريك الثقافة، ويوفّر لها فرصة التفاعل مع الثقافات الأخرى، لتخرج من ركودها وتكون أكثر انتباها لقضايا العصر (الهيتي، 2003).

ولقد تمحورت صراعات حضارية وفكرية كثيرة حول حق الاتصال، وظل ذلك يتبلور ضمن مطالب إنسانية وحقوقية، إلى أن أصبح حقا ملزما في مجالي الإعلام والاتصال سنة 1948م، وتم التقنين له في (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان)، وقد احتاج ذلك إلى ثلاثة قرون منذ اختراع جوتنبرغ، واختمار التحليل والنقاش بين فلاسفة الأنوار، لكي يترسّخ حق التعبير، ويحتل تلك المكانة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (الحافظ، 1979).

وحاجة الإنسان لوسائل الاتصال هي حاجة حيوية، لا تنفصل عمّا يضمن سيرورة الحياة واستمرارها؛ فهو يستخدمها للعيش، ولإنجاز أعماله، بالإضافة لكونها تشبع -بشكل من الأشكال- بعضا من احتياجاته (الهيتي، 1998).

وقد انصبّت بعض الدراسات على ذلك الاتفاق الحاصل في تلقّي الرسائل والمعلومات، وهو ما يسمى بالتوجيه المماثل، والذي تقوم فكرته على أنه من الممكن أن يكون لدى شخصين ملاحظات وتفسيرات للشيء نفسه، وكلما كان التشابه كبيرا، كلما أصبح التدفق للمعلومات بين الأشخاص أكثر كفاءة، ويكون التدفق المكثف للمعلومات بشكل تلقائي، زيادةً في عملية التوجه المماثل، وهذا يعكس تلك العلاقة الوطيدة بين وسائل الاتصال والجمهور (الحافظ، 1979)، وكيف يمكن التحكم فيها بحسب هذا التحليل، فاستعمال الإشارات والرموز للاتصال، يعتمد على الاتفاق حول تصنيفات النظر إلى الأشياء والتصوّرات، حين إنتاج المعلومات أو تخزينها أو تسجيلها. فتلك التصنيفات هي من ضروب التمثيل، ووسائلُ الاتصال هي مصدرها المهم للتمثيلات الجمعية؛ إذ هي التي توضح الخطوط الكنتورية[1] للحضارة والمجتمع (هارا لامبوس، 2001).

ويبدو جليا، كيف أمكن الحديث عن الإشارات والرموز ضمن العملية الاتصالية ووسائلها، بشكل منطقي وانسيابي دون إقحام ولا افتعال؛ حيث تتضح علاقة المرسل بالمتلقي في فكرة التغذية الراجعة، ودراسات الجمهور في شكلها الأقوى والأنضج للدلالة على ذلك الاتفاق الحاصل في استقبال المعلومة وتفسيرها وفهمها في الحيز الجمعي.

ثانيا: اللغة الصامتة وخصائصها (الاتصال غير اللفظي):

1- مفهومها: اللغة الصامتة، هي أحد أنواع التواصل غير اللفظي، والتي تصدر عن الجسد على شكل إيماءات وإشارات، والتي تعبر عن المشاعر والأحاسيس الداخلية لا شعورياً، حيث يتم عن طريق هذه

الإشارات والإيماءات إيصال العديد من الرسائل والأفكار للأشخاص الآخرين. أو ما يسمى أيضا ب "الكينيزكس" (Kinesics)، أو علم الكينات، أو علم الإشارات الجسمية (Gestures)، وهو دراسة أو علم يبحث في العلاقة بين لغة جسد الفرد مثل هزّة الكتف، وبين الاتصال بالآخرين بالتراسل/التبليغ. (باسم سليمان2011، وزكي حسين،2001).

ويقسِّم بعض العلماءِ الاتصالَ غير اللفظي إلى ثلاث لغات (الفليني، 2005)، و هي:

1- لغة الإشارة: وتتكون من الإشارات البسيطة أو المعقدة التي يستخدمها الإنسان في الاتصال بغيره.

2- لغة الحركة والأفعال: وتتضمن هذه اللغة جميع الحركات التي يأتيها الإنسان لينقل إلى الغير الذي يريده من معانٍ أو أحاسيس، ومن أمثلة ذلك ما يؤديه الممثل من حركات على المسرح دون أن يصاحبها ألفاظ، ورغم ذلك تستطيع أن تفهم ما يعنيه، فإن كان يمسك بيده شبكة ويقوم بأداء حركات بها، يمكن أن يفهم منها أنه يقوم بدور أحد صيادي السمك إلى غير ذلك من الأمثلة.

3- لغة الأشياء: ويقصد بها ما يستخدمه مصدر الاتصال، غير الإشارة، والأدوات، والحركة للتعبير عن معاني أو أحاسيس يريد نقلها إلى المستقبل، فارتداء اللون الأسود يرشد إلى الحزن الذي يعيش فيه من يرتدي هذا اللون.

ويؤكد الباحثون أن الاتصال غير اللفظي يمتد ليشمل "تعبيرات الوجه والإيماءات، والأزياء والرموز والرقص، والبروتوكولات الدبلوماسية".(أبو أصبع، 1998)

وتنقسم الإشارات غير اللفظية إلى أربعة رموز(مكاوي، والسيد، 2004) ، هي:

أ- رموز الأداء: وتشمل حركات الجسد، مثل تعبيرات الوجه والعيون والإيماءات، وكذلك ما أطلق عليه "شبه لغة"، كنبرة الصوت، والضحك والبكاء..

ب- رموز اصطناعية: كأدوات التجميل، والملابس والأثاث، وما يعبر عن مكانة الإنسان.

ج- رموز إعلامية: كل ما يتعلق باستخدام وسائل الاتصال من اختيارات لحجم الخط، والألوان والصور والظلال وأنواع المشاهد التلفزيونية من حيث القرب والبعد.. والمؤثرات الصوتية.

د- رموز ظرفية: وتنبع من استخدامنا للزمان والمكان، ومن خلال ترتيب المتصلين والأشياء حولهم، مثل مقاعد جلوس الزوار حسب مكانتهم الاجتماعية، أو تأثيث قاعة تدريس..

فالجسد إذًا، وضمن هذه الرمزية في الاتصال غير اللفظي، هو مفهوم قائم بذاته وبوظائفه، ف"أن يكون لك جسد، فأنت في تواصل، وذلك هو الجزء المتمّم للانفعالات" (Dumouchel, 1999).

وشئنا أم أبينا، فنحن في عملية تواصل مستمر، لأن وجودنا و سلوكنا بجميع أنواعه هو تواصل؛ لا يمكن أن نعيش أو أن نكون موجودين من دون إحداث سلوك، وبالتالي وكنتيجة حتمية فنحن لا نستطيع ألّا نتواصل، وذلك طبقا لقول (Watzlawick , 1972): "كل سلوك، وليس الكلام وحده، هو تواصل، وكل تواصل يؤثر في السلوك". كما يشرح ذلك الفرق بين الاتصال الرقمي والاتصال التماثلي أو (القياسي)، فالأول متعلق بالكلمة والمعلومة اللفظية، بينما الاتصال التماثلي فهو يشمل كل ما هو اتصال غير لفظي، من إشارات جسدية مماثلة لوظيفة اللّفظ، وإيحاءات وإيماءات، وتلوينات الصوت، وتتابع في الكلام، والإيقاع، ونبرات الكلمات وغيرها. فالاتصال الرقمي يعمل على تبليغ المحتوى، بينما الاتصال التماثلي، يُعنَى بالعلاقة، وهذان النوعان من الاتصال يتواجدان معا، ويتكاملان في كل تفاعل.

ويؤكد (Le Breton, 1998)، على أن "بداهة حضور الآخر في التفاعل(التواصلي)، ليست فقط بكلامه، ولكن قبل ذلك بجسده، وحالات هذا الجسد ووضعياته"(Le Breton, 1998)، وهذه الأهمية

للجسد، تمنح لغته وإيحاءاته وحركاته، وكل ما يتعلق به من تعبير، أهميةً أكبر، وتمنح لوظيفته التواصلية المكانة الأولى في التفاعل. لذلك يرى الكاتب أن "الجسد ليس مجرد مادة سلبية، خاضعة لسلطة الإرادة، وعقبة أمام التواصل، لكن بآلياته الخاصة، أصبح ذكاء العالم، نظرية حية ومطبقة في بيئته الاجتماعية..." (Le Breton, 1998) .

2- أهم خصائصها:

أ- لغة الجسد تعبر عن معلومات وجدانية صادرة من النفس البشرية، لا يمكن التعبير بها عن طريق اللغة المنطوقة.

ب- لغة الجسد تشمل نبرة الصوت وتعبيرات الوجه، فتعطينا معلومات ودلالات اللغة المنطوقة، والتي يصعب التعبير عنها بكلمات منطوقة.

ج- لغة الجسد تتميز بالصدق لأنها –غالبا- لا يمكن التحكم بها، لكونها رد فعل لما تشعر به النفس البشرية.

ثالثا: تاريخ الاهتمام باللغة الصامتة

الاهتمام بظاهرة الإشارات الجسمية ودورها في التواصل بحسب المصادر الأوربية "يعود إلى مرحلة مبكرة لدى اليونان، والرومان من ناحية. كما سنجد هذا الاهتمام يشتجر بعلوم وفنون مثل: الفراسة، وعلم وظيفة الأعضاء، وعلم النفس وفنون الرقص، والتمثيل الصامت، والخطابة، والرسم"(حسام الدين، 2001).

وقد كان للعلماء العرب - أيضا اهتمام بهذا العلم والفن في الوقت ذاته؛ حيث يقول محمد العبد في كتابه العبارة والإشارة : "أما عطاؤهم الفكري الذي حملته لنا مصادر التراث اللغوي والبلاغي: فإنه يؤكد لنا فطنتهم إلى منزلة الإشارة في السلوك الكلامي، ودورها في الكشف عن مقاصد المتكلمين، واعتيادها لأغراض بلاغية فيما أنتجوه من نصوص أدبية رفيعة. وبعض ذلك لمحات مقتضبة عارضة، وبعضها مما أفردت له الأبواب وحلت فيه المسائل تقصيا حقيقته" (العبد، 2007).

وقد ظهرت بواكير هذا العلم مبكرا في موروثنا العربي والإسلامي، فيتضح ذلك من خلال كتاب "الفراسة" للإمام فخر الدين الرازي، الذي يعتمد على ظاهرة الإشارات الجسمية، والهيئات التي يتخذها الجسم في الدلالة على السمات الأخلاقية، والحالات النفسية للإنسان. وقد عرّف الفراسة بقوله: "الفراسة عبارة عن الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة" (الرازي، 1982).

والإشارة عند الجاحظ، اصطلاح يتسع لجميع أشكال السلوكيات الحركية، كما بيَّن الوظيفة الاتصالية للإشارة، والتفت إلى جميع جوانب النظر في السلوكيات المركبة، بل التفت إلى رمزية في الإشارة يفتقدها المنطوق من الكلام (الجاحظ، 1960).

رابعا: العلاقة بين الاتصال الصامت والاتصال الصائت

توجد علاقة وطيدة وقوية بين لغة الرمز والجسد (الاتصال الصامت)، ولغة اللسان (الاتصال الناطق)، أو الاتصال الصائت، فَلِلغة الصامتة وظائف وأدوار تؤديها إلى جانب اللغة اللفظية، والتي يمكن بلورتها فيما يأتي:

- **الإعادة (التكرار):** حيث إن الحركات والإيماءات التي تصدر عن الجسد، ما هي إلا إعادة لكلام الشخص المتحدث (Upbility publications)، (كأن يشير إلى موقع معين بقصد هنا).

- **تقديم البديل:** من الممكن أن يستخدم الشخص لغة الجسد كبديل للاتصال اللفظي (**Conesa, 1983**)، كأن يستخدم حركات وتعابير الوجه التي تُغني عن الكلام، مثل الإشارة بالموافقة أو الرفض؛ إذ تعتبر لغة الجسد مكملةً للاتصال اللفظي، حيث إن حركات الجسد قد تبين، وتوضح، وتكمل المغزى والمقصود من الكلام، كما أنها توضح وتُعدّل الرسالة التي يريد الشخص إيصالها، كأن يضرب الطاولة بيديه دلالةً على الغضب عند الانتهاء من كلامه.

- **التأكيد:** حركات الجسد العفوية تؤكد كلام الشخص ورسائله اللفظية (Schnitzler, 1994)، كأن يستخدم نبرة صوتٍ مختلفة لكلمات مُعيّنةٍ في سياق الحديث للتأكيد على أهميتها، أو استخدام تعابير الوجه للتأكيد عليها.

- **تتمة للمعنى:** فالإشارات والحركات غير اللفظية، يمكن أن تضيف معلومات وتكمل مضمون الرسالة. فالألفاظ تقدم محتوى، قد لا يكتمل –أحيانا- دون تدخل اللغة الصامتة من حركات وإيماءات وإشارات.

- **التناقض:** الإشارات غير اللفظية، يمكن لها أن تكون مناقضة للرسالة التي يُراد تمريرها كاتصال غير لفظي Communication non verbale ، وهذا يعكس أهمية وظيفة ودور اللغة الجسدية الصامتة، فإذا لم يُنتبَه لها فقد تنسف معنى الرسالة، وتحوّله إلى النقيض، وإلى محتوى غير مقصود بالمرّة، أو ربّما مقصود حين يُضطر الإنسان أن يحابي جهة معينة، أو خوفا من جهة معينة، كتلك الإيماءات التي نقوم بها حين نلتقي بمن لا نحبهم، ولكننا نضطر للترحيب بهم، لكن للجسد لغته التي قد تقدم العكس.

كما يمكن للشخص المتحدث أن يناقض أقواله باستخدامه لحركات وإشارات الجسد، مثلاً كأن يطلب المسؤول إحضار ملف معين من أحد الموظفين، وفي الوقت نفسه يشير له بعينيه بألّا يقوم بإحضاره.

فالإشارة إذًا، إما أن تتمّم المعنى والألفاظ في التواصل، وإما أن تنفرد به انفرادا كلياً بحسب اقتضاء الحاجة والمقام، وإما أن تناقضه، وقد نبّه الجاحظ على ذلك؛ بحيث تصبح الإشارة –أحيانا- أسلم لطرفي الاتصال من اللغة اللفظية؛ مخافة افتضاح أمر المتحدثين. وهو ما أطلق عليه عبارة "خاص الخاص" (الجاحظ، 1998)، فذلك ما تغدو فيه رتبة الإشارة أسبق من رتبة اللفظ عند الجاحظ. فحاجات النفس والمقام التي تتطلب اللغة الصامتة كثيرة ومتعددة.

- **التنظيم:** يمكن للاتصال غير اللفظي، أن ينظم الاتصال بين المشاركين مثل: حركة الرأس أو العينين، أو تغيير المكان، أو إعطاء إشارة لشخص ليكمل الحديث أو يتوقف عنه، وكلها وظائف تنظيمية يقوم بها الاتصال غير اللفظي.(مكاوي، 2004)

خامسا: صمت مريم ودلالته الاتصالية

تعدّدت مفاهيم الصمت وتنوعت بحسب الفن الذي تناوله واشتغل عليه، ولأن الصمت والسكون يكمنان في الطبيعة وفي الإنسان وفي كل موجود في الكون، ذهبت الرؤى فيه مذاهب؛ فقد اهتم الفلاسفة بدراسته، عبر مجموعة من الطقوس والأساطير والحركات العبادية التي قام بها الإنسان منذ القدم، فبدا الصمت جزءًا مهمًّا بمحاكاته للطبيعة الصامتة. و" الفكر الفلسفي في عصور ما قبل التاريخ مال إلى اعتبار أنّ السكون هو أصل الحركة، فالتحرك حالة تطرأ على الساكن، وأن الأصل في كل متحرك هو ساكن" (آل ياسين، 1985)، فليس الصمت والسكون غيابًا، لذلك فالعناصر الغائبة هي حاضرة في الذاكرة الجماعية، وذلك الغياب لتلك العناصر يمثل شكلا متحرّكا لعلامات الصمت التي تمثّل نصاً مسكوتا عنه، فلحظة الانقطاع في النص هي التي تمنح لذّة النص (تودوروف، 1990)، فالصمت كلام ولكنه كلام ليس لفظيا ولا يحتاج للكلمات، لذلك اعتبر هيدغر الصمت بأنه توصيف الكلام الخفي (هيدغر، 1963).

وقد تبيّنَ من خلال العلاقة بين لغة الجسد (الاتصال الصامت)، والاتصال اللفظي (الاتصال الصائت)، أنه يمكن للغة الجسد أن تكون بديلا للاتصال الناطق، من دون الحاجة للألفاظ والكلمات.

وحين قال الله تعالى لمريم عليها السلام: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَن أُكَلِّمَ الْيَومَ إِنْسِيًّا﴾ (مريم 26)، فقد أمرها بالإشارة إلى سيدنا عيسى –عليهما السلام- وهو الذي لم يمتلك ملَكة النطق بعد، ليُجيب قومه ويكلّمهم في مسألة مصيرية وخطيرة، فإن ذلك يحيل على الآتي:

1- أنّ كلام مريم لم يكن ليُقنع قومها بحال من الأحوال، لأن ملابسات القصة بالنسبة لهم، تُختزل في النتيجة التي بين أيديهم، فمريم ليست متزوجة، ولكنها تحمل صبيا بين ذراعيها وهو ابنها، فهذا لا يحتمِل في تفسيرهم سوى فكرة واحدة، ألا وهي "الخطيئة". فيكون صمتُها أسلم وأقوى من كلامها، لأنه لا وجود لكلمات قادرة على تغيير نظرتهم للموضوع، وفي وضعها ذاك، لوتكلمت مريم عليها السلام، لأدى كلامها لنقاش كارثي عقيم لن يقنع القوم؛ فقد جاء في دراسة أمريكية للمركز الدولي "توستماسترز" لتكوين القادة، ما يفيد بأنه "حين تخاطب جمهورا، فلكي تبلّغهم أمرا مهمًّا، وللإقناع، عليك أن تبدوَ مقتنعا، وجادًّا، ومتفائلا: حركاتك وعباراتك ينبغي أن تثبت أدلّتك، وإلّا فأنت مُعرّض لكارثة" (Toastmasters International, 2003)، فتبدو الحكمة الإلهية جلية في أمر مريم –عليها السلام- بالتزام الصمت، وحتى في مجرد إحالة الكلمة على من ستظهر على يده معجزة من خوارق العادات. فصمتُها سيحميها من خطر أيِّ انفعال يظهر عليها من خوفٍ أو توسّل، أو تحدٍّ.

2- أنّ الله أمرها - عليها السلام- بالصمت والإمساك عن الخوض في ذلك الموضوع بالذات، فيما يتعلّق بالإجابة عن مسألة الصبي الذي تحمل بين ذراعيها بلا زواج؛ إذ إنّها لم تنطق بكلمة واحدة، بل أحالت المهمّة على الصبي، وأشارت إليه إشارة، ولم تكلّمه أو تكلّمهم كلاما.

3- أنّ الأمر يتجاوزه مريم الفتِيّة، وقد لا تجد التعبير اللفظي المناسب عن الوضع الحرِج الذي كانت فيه، لأنها - في الأصل- تفاجأت بالأمر مثلهم واستغربته عندما كان مجرّد فكرة، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَم اَكُ بَغِيًّا﴾ (مريم 20).

و جاء في دراسة توستماسترز-أيضا- أن التعاطف مع المتحدث يكون مع حركاته ولغة جسده أكثر من كلامه (Toastmasters International, 2003)، وقد كانت مريم –عليها السلام- بحاجة إلى ذلك التعاطف والتصديق، ولم يكن أيّ كلام ليؤثر في قومها، وهي الفتية البريئة التي لم تخالط الناس كثيرا.

4- أن الصَّمت لحظة دينامية متفجرة بالحركة، شأنه شأن الكلام من حيث عملية البناء الدرامي (محمد رضا و مفتن، 2015)، وله قوة لا مثيل لها، تجعل الطرف المقابل متحيّرا في أمر الطرف الصامت.

5- أن للصمت بلاغة، لذلك يقول الجاحظ عن البيان: "هو البيان الذي جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم ومعبراً عن حقائق حاجاتهم ومعرّفاً لمواضع سد الخلّة ورفع الشبّهة ومداواة الحيرة" (الجاحظ، 1424ه).

ويكون الصَّمت –أحيانا- كما يبدو في بعض التصورات، رديف تعطل التواصل، وهو مقترن بالموت والعدم والتعطل والاختفاء والاحتجاب والحيرة والكرب (البهلول، 2007)، وهو صمت العيّ والرهبة.

وبالمقابل يفرّق الجاحظ بين صمت العيّ والرهبة، وصمت آخر، وهو الصَّمت الذي يندرج تحت خطة أو إستراتيجية خطابية بها يدرك المتكلم (بالصَّمت) ما عزّ منالهُ بالكلام. يقول: "واعلم أنَّ الصَّمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة فرصته، وذاك صمتك عند من يعلم

أنك لم تصمت عنه عيّاً ولا رهبةً" (الجاحظ، 1964). وصمتُ مريم –عليها السلام- كان استراتيجية خِطابية وفقا للتقدير الربّاني لإحداث الأثر المرجو.

6- أنّ الصَّمت فيضٌ من الله ﷻ، هذا ما يراه أفلاطون: "إنّ الله يفيض على الكون بالصَّمت، فهو متعالٍ عن المعقولات كلها، ومُكْتَفٍ بذاته" (الحكيم، 1981). ويشير أرسطو إلى أنّ الوجود الإلهي صامت؛ لأنّه متحرك بذاته، والمتحرك بذاته صامت، والمتحرك بغيره صاخب (الأهوائي، 1948). فأمرُ الله للسيدة مريم - عليها السلام- بالصوم عن الكلام، له حكمته وتجلّياته البعدية، فهناك مقولة مفادها: "بعد الصمت تأتي الخوارق".

وإذا كان للصمت هذا الحضور الإلهي، الذي يفيض على الوجود والموجودات، فما الذي سيكون أجلّ وأجدى من ذلك الفيض؟ خاصة وأنّ المقام مقام نبوة، وإحقاقُ حقٍّ في الدفاع عن قدّيسة طاهرة وعفيفة ونبي. لقد كان الصمت أبلغ انسجاما مع المقام، وإمعانا في تربية ذوق القوم وتهذيبا لهم.

7- اللغة الصامتة هي لغة الأنثى بامتياز، تقول (Streep, 2010): "إذن، فالقاعدة الذهبية، هي: مع النساء ينبغي تَعلُّم القراءة بين السطور، وكلّ شيئ يسير على خير"، كما تقول إن النساء على وجه الخصوص، يُعَبّرن بشكل طبيعي أكثر من الرجال بأجسادهن، وتعبيرهن الطبيعي بأجسادهن، أكثر دقة وتعقيدا من تعبير الرجال الجسدي (Streep, 2010).

وقد كان صمت زكريا ﷺ صمتا مختلفا، قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مريم 10،11). وقد ورد في تفسير الطبري لآية صوم هذا النبي زكريا ﷺ عن الكلام، إنّما هو-مع غرابة الفكرة- نوع من العقاب له، حين استغرب عقلُه أن يُرزق الولد في تلك السن، سِيَّما وأن زوجته كانت عقيما، فجاء الصوم عن الكلام آية تجعله يعجز عن الكلام من غير سوء، ولا علة تمنعه من ذلك؛ إذ ورد في التفسير ما نصّه: "حدثنا بشر ، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ من غير بأس ولا خرس، وإنما عوقب بذلك لأنه سأل آية بعد ما شافهته الملائكة مشافهة، أخذ بلسانه حتى ما كان يفيض الكلام إلا أومأ إيماء"(الطبري، 2000).

وكان لهذا الحدث تفاسير أخرى؛ حيث "قال آيتك" أي علامتك " أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا " أي أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة. قال مالك عن زيد بن أسلم "ثلاث ليال سويا" من غير خرس، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها "إلا رمزاً" أي إشارة، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة "فخرج على قومه من المحراب" أي الذي بُشِّر فيه بالولد "فأوحى إليهم"، أي أشار إشارة خفية سريعة "أن سبحوا بكرة وعشيا" أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه (مجموعة من المحققين، 1426).

وقد يكون هذا التفسير مجانبا للصواب؛ إذ إنه قد يعكس مبالغة في عقاب سيدنا زكرياء ﷺ فقد طلب غيره من الأنبياء أدلة على قدرة الله ﷻ ولم يطلهم أيّ عقاب، وكيفما كان تفسير الآية من قريب أو بعيد، فإن كرامة الصمت من مريم – عليها السلام- كانت لمواجهة القوم، فالمقام خطير، بينما كان صمت زكريا ﷺ لنفسه (على الأكثر تقدير)، كي تطمئن وتهدأ وتسعد بقدرة الله على إكرامه بالولد بعد بلوغه من الكبر عتيا، قياسا على قدرته ﷻ على كل شيئ.

سادسا: المتخيّل والمفهوم في مشهد إشارة مريم للصبي

كيف يمكن لمريم أن تقنع قومها اليهود بصدق قصتها؟

لا يقدم التراث النصراني أي جواب، فجل كتب النصرانيين المقدسة تجاهلت طفولة المسيح الأولى بحيث تكاد تكون حلقة مفقودة عندهم. .ومن ذكرها من الإنجيليين صرف الانتباه عن المشكلة الخلقية إلى المشكلة السياسية؛ فذكروا قدوم ثلاثة ملوك مجوس، ترشدهم نجمة فسجدوا لملك بني إسرائيل (الغلام الوليد)؛ مما أثار حفيظة الملك هيرود أو غيره...وكل هذا حيدة عن السؤال الحارق ما دليل مريم على صدق قصتها؟ (أبو عبد المعز، مرجع إلكتروني).

وسكوت النصرانيين عن هذه الحقيقة لا يتّسق مع شغفهم بالخوارق والمعجزات، وهم الذين يشحنون عقول عامّتهم وخاصّتهم بأخبار عن تماثيل للعذراء باكية أو دامية، و يعلمون أن تلك الأخبار مختلَقة، فهم "يقبلون قصة مختلقة يرويها معتوه، ولا يقبلون قصة في مصلحة دينهم جاءت في القرآن**!!"(أبو المعز، مرجع إلكتروني).**

وعليه فقد انفرد القرآن الكريم، بقصة صمت مريم، وقصة تكليم عيسى عليهما السلام.

وفي القرآن، تُصوّر لنا الآيات ما نفهم من خلاله، أن إشارة مريم لعيسى - عليهما السلام- جاءت إحالةً منها لصبيها، ليخبر القوم بحقيقة الأمر، وقصة حمل أمه به، وإنجابها له من دون زواج، لكنّ الآيات لم تبيّن لنا نوع الإشارة وأداتها، وتُرِك الموضوع للتخمين والتخيّل على أساس أن العبرة والدرس في القصص القرآني، هي المقصد منه، وليس المقصد هو السرد والحكي والإمتاع. ويبقى من حق العقل أن يهتم بالتفاصيل، فيتساءل كيف كانت إشارة مريم للصبي في المهد؟

ولا نجد غير احتمال واحد وقوي في الدلالة على المراد، ألا وهو: "إشارة اليد"

وقد قيل عن اليد أنها أشبه أعضاء الجسم باللسان، من حيث كثرةُ الاستعمال، وقوةُ التبليغ، فهي من أكثر أعضاء الجسم استعمالا. وهي العضو الذي "يقوم في النظام الإشاري الجسمي مقام اللسان في النظام اللغوي الصوتي، لأنها تساعد المتكلم على التعبير عمّا يريد بشكل فعال"(حسام الدين، 2001)، ولعلها الأقرب في قصة السيدة العذراء –عليها السلام- في الدلالة على الإشارة لقومها وأمرهم بالتكلم مع الصبي في المهد.

وقد يُستنتج ذلك من تلك الدلالات التي تؤديها اليد وتبلّغها كرسالة تخاطبية؛ حيث يقول عريب محمد عيد: " وفي التعبير الحركي (لغة اليد) تصدر أوامر ونواهي، وقد تكون مقصودة بشكل إرادي أو عفوي أو لا إرادي، وهي تعزّز أدواتنا الاتصالية"(عريب، 2010)، فمن استعمالاتها في التخاطب اليومي، ما يستخدم في الأمر، أو طلب الإقبال، إو إدبار الأمر. ويمكن تصنيف هذه الإشارة، ضمن فئة أو نوع "رموز الأداء"، التي تؤدي معنًى معينا ضمن تعبيرات الوجه والإيماءات ونبرات الصوت...

وذلك ما يمكن أن يتّسق أكثر من غيره، مع المضمون الذي كانت مريم –عليها السلام- تشير إليه. كما تأخذ اليد، معنى التوجيه إلى الشيئ، وهو المطلوب في قوله: (فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا)، فقد قال أبوحيان الأندلسي: "أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه" (أبو حيان الأندلسي، 1993)، وأضاف أن في ذلك دلالة على الامتناع عن الكلام من موقف قوة، لأن المُشار إليه فيه حجة دامغة تغني عن كلام مريم، لذلك استعملت الإشارة، لأن الدليل مادي موجود أمامهم. فلا حاجة لحديث حينئذ، فوجّهتهم بحركة اليد إلى عيسى عليه السلام (أبو حيان الأندلسي، 1993).

سابعا: الإشارة في قصة مريم ودلالاتها في التفاسير

مما سبق، تأكّد أن الإشارة لغة لها دلالات عدة ومتنوعة بحسب الحاجة، وأن ورودها في القرآن لدليل على أهميتها ودورها في تبليغ الرسالة، ولهذا فإن مراجعة بعض التفاسير في تفسير الآيتين 26 و29 من سورة مريم لها –حتما- فائدتها.

فقد جاء في تفسير القرطبي: "التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت ب ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ وإنّما ورد بأنها أشارت، فيقوي بهذا قول من قال: إنّ أمرها ب (قولي) إنما أريد به الإشارة، ويروي أنهم لمّا أشارت إلى الطفل قالوا: استخفافها بنا أشدّ علينا من زناها، ثم قالوا لها على جهة التقرير: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ وكان هنا ليس يراد بها الماضي، لأن كل واحد قد كان في المهد صبيا، وإنما هي في معنى هو الآن"(القرطبي، 2019) .

وقد ورد في هذا التفسير، كمسألة متعلقة بالإشارة، ما نصه:

"الإشارة بمنزلة الكلام، وتُفهم ما يُفهم القول، كيف لا وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال: فأشارت إليه وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا: كيف نكلم وقد مضى هذا في آل عمران مستوفى".

وقد تعرّض القرطبي لمسألة الإشارة كإشكال، تترتب عليه خلافات فقهية حول قبول شهادة ولِعَان الأخرس، فانقسم أصحاب الرأي في ذلك إلى مذاهب، يذكر القرطبي منهم رأي الكوفيين، ورفضهم لقذف الأخرس ولِعانه، وقال بذلك كل من الشعبي والأوزاعي، وأحمد وإسحاق، حيث يصح الزنى لديهم بالصريح من القول وليس بالمعنى، وذلك ما اعتبروه لا يصح من الأخرس ضرورة، فلم يكن قاذفا ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطء الحلال والشبهة. فقالوا إن اللعان عندهم شهادات، وشهادة الأخرس لا تقبل بالإجماع.

كما يذكر القرطبي أن ابن القصار ذهب إلى أن القذف لا يصح إلا بالتصريح فهو باطل بسائر الألسنة ما عدا العربية، فكذلك إشارة الأخرس. وأن ما ذكروه من الإجماع في شهادة الأخرس فَغَلَط، وقد نصَّ مالك أن شهادته مقبولة إذا فهمت إشارته، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة، وأما مع القدرة باللفظ فلا تقع منه إلا باللفظ. كما قال ابن المنذر بأن المخالفين يلزمون الأخرس الطلاق والبيوع وسائر الأحكام، فينبغي أن يكون القذف مثل ذلك. قال المهلب: وقد تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقد أقوى من الكلام، كقولهﷺ: "بعثت أنا و الساعة كهاتين"[2] نعرف قرب ما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة. وفي إجمال العقول على أن العيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشارة قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام (القرطبي، 2019).

وواضح أن هناك أبوابًا أفردت ل"الإشارة في الطلاق والأمور" و"باب من أجاب الفُتيا بالرأس واليد"، وقد جاء في باب اللسان: "إذا قذف الأخرس امرأته بكتاب أو إشارة أو بإيماءة تعرف فهو كالمتكلم" (العبد، 2007).

وهذا ما يعكس المكانة التي تأخذها لغة الصمت والإشارة في حيّز الديني والمقدّس؛ إذ تترتبُ على الإشارة والحركة والصمت، في مواضع كثيرة - وليس المقام مواتيا لذكرها- أحكاماً في العبادات والمعاملات، لدرجة تبلغ مداها حين يتعلّق الأمر بالطلاق على سبيل المثال. وهذا يُعتبر سبقا معرفيا ودلاليا للدّيني، حين أَوْلى هذه الأهمية لتلك اللغة، وذلك التعبير، وبنى عليهما أحكاما ومعارف.

ومن الضروري التعريج على تفسير معاصر، والنظر في ما ورد في رؤية محمد الطاهر بن عاشور لمسألة الإشارة الواردة في الآية محل البحث، فقد جاء في التحرير والتنوير: "أشارت إليه إشارة دلّت على

أنها تحيلهم عليه ليسألوه عن قصته، أو أشارت إلى أن يسمعوا منه الجواب عن توبيخهم إياها وقد فهموا ذلك من إشارتها.

ولمّا كانت إشارتها بمنزلة مراجعة كلام حكى حوارهم الواقع عقب الإشارة بجملة القول مفصولة غير معطوفة... والاستفهام: إنكار؛ أنكروا أن يكلموا من ليس من شأنه أن يتكلم، وأنكروا أن تحيلهم على مكالمته، أي كيف نترقب منه الجواب، أو كيف نلقي عليه السؤال، لأن الحالتين تقتضيان التكلم.

فواضح أن إشارتها كانت مفهومة لديهم، والدليل أنهم أجابوها باستفهام استنكاري، فيه نوع من الغضب والتعجب من إحالتها لهم على من كان في المهد صغيرا لا يقدر على النطق" (بن عاشور، 1984).

لم يرد في التفسيرين ما يبين أداة الإشارة المستعملة، لكنّ سرد الواقعة على هذا النحو فيهما، أو عند استعراض الآيات الحكيمات، يوحي بعظمة ذلك الصمت أو الصوم عن الكلام، الذي كانت عليه مريم – عليها السلام- بأمر من ربّها، وبأنّه صمتٌ يليق بقوم كانوا معتدّين بمكانتهم، وبغرور رهبانهم الذي لا حدود له، وفي الصمت تحجيم لذلك "الأنا" المتضخّم والمريض.

ولقد جاءت إشارة مريم –عليها السلام- إلى صبيّها ورضيعها عليه السلام، مفعمة ومثقلة بالإيحاءات والدلالات، ويمكن قراءة بعض تلك الإيحاءات على النحو الآتي :

أ- أن العمر العقلي -لأولئك القوم بسبب رفضهم للحقائق وتحريفهم لها والثابت من قبل- لم يكن ليتجاوز عمر رضيع عاجز عن التحليل والتفكير، فكان المقام أنسب ليتحدّثوا مع الصبي في المهد، وقد أوجعهم الموقف وجرح كبرياءهم.

ب- أن القوم لا يرتقون لمستوى التصديق بالله، دون وجود الدلائل الحسية والمعجزات، مع أنّ عصرهم كان حافلا بالنبوءات والأنبياء، ولكنّهم يجحدون في كل مرة، ويجادلون، ويطلبون -من باب التعجيز- خوارق حِسِّية- لا علاقة لها بالإيمان القلبي، والاستنارة الروحية الموصولة بالاستدلال الكوني والنفسي من الكتاب المنظور(الكون والأنفس) المُتاحِ لكلّ ذي عقل متدبّر.

ج- أنّ المعجزات والخوارق التي كانوا يرونها بأعينهم، لم تكن لتُحقّق لهم ذلك الامتلاء بالحقيقة، بل كانت تجحدها أنفسهم، فيحاربون كلّ من تظهر على يديه تلك المعجزات، فتحوّلَ – بأمر الله ودفاعه عن مريم- مضمار التحدي والصدام، من حيِّز الأم العذراء –علبها السلام- إلى حيّزِ نبيٍّ، بدأ المواجهة بقدرة الله ﷻ، مذ كان رضيعا، فيقدم –رمزيا- تلك الحماية لأمه الوحيدة العزلاء من كلّ قوة غير قوة الله، وقد ابتلاها ﷻ وأيّدها، وأسعدها، وشرّفها بأمومتها لنبيّ، وهي الصّدّيقة الطاهرة. فكان ذلك، إمعاناً في تقديم الحجة والدليل لهم، وإخراس ألسنتهم الملتوية، منذ مولده عليه السلام، إلى غاية اعتقادهم أنهم قتلوه. فالمسألة كانت مسألة كفر وجحود رُغم علمهم بكونه نبيا ورسولا من أولي العزم، كلّمهم في المهد وكان آية من آيات الله للعالمين.

وفي كل هذه الإيحاءات، كان صمت مريم، وإشارتها لرضيعها، ترفُّعا عن منطق أصحاب الأهواء، وقتلة الأنبياء. وقد رفع الله مقامها بالصِدِّيقية التي ينال شرفها الأنبياء ﴿مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقة[3]﴾ (المائدة 75)، وأيّدها بلغة الصمت، وبلاغة السّمت. لأنه العليم بكل شيء ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ (الملك 14)، وكان المقام مناسبا لما قد يبدو قبل التدبر، أو لدى المتحيرين، ضربا من السريالية والغموض.

خاتمة:

القرآن الكريم خطاب من الله إلى العالمين، فهو رسالته إليهم، التي تهدف لتبليغ مضامين متعلقة بأمور دينهم ودنياهم، ولمّا ثبت أن الرسالة هي أحد أهم أركان العملية الاتصالية، وأن هذه الرسالة قد تكون لفظية، أو غير لفظية بما تشمله هذه الأخيرة من صمت، وحركات، وإشارات، وإيماءات جسدية، وهي ما يسمى باللغة الصامتة. وأنها لغة قوية في تبليغ المعنى والرسالة، بل تكون أقوى –أحيانا- من الرسالة اللفظية. وبناء على كل ذلك، فإنّه يُفترض أن تكون كل هذه العناصر الصامتة المكوِّنة للرسالة، قائمة وموجودة في رسالة الله لعباده.

وقد جاء التساؤل في هذه الورقة البحثية، عن طبيعة ورود هذه اللغة الصامتة في القرآن الكريم، ووظيفتها من خلال آيتين قد وردتا في سورة مريم عليها السلام، إحداهما تعلقت بالصمت في مقام المواجهة، والثانية تعلقت بالاكتفاء بالإشارة إلى من يحمل الحجة والدليل في ذاته.

فكان واضحا أن اللغة الصامتة بجميع أنواعها، من صمت وإشارة وحركات الجسد، تكمّل أحيانا الرسالة اللفظية، وأحيانا تؤكدها، أو ربما تناقضها، وأحيانا تنفرد كليا بالرسالة في العملية الاتصالية، وربما تكون أقوى في الدلالة عليها.

وقد تبيّنَ أن لغة الصمت، هي لغة الأنثى بامتياز، وأن الله ﷻ حين أمر السيدة العذراء بالتزام الصمت، في مقام حَرِج يتطلّب الدفاع عن الذات في قضية حسّاسة وخطيرة كالشرف والعِرض، فقد كان ذلك لحكم كثيرة وجليلة، توَضّح بعضها من خلال الربط بين هذه اللغة المتداولة في قصة مريم مع قومها، وما توصّل إليه العلماء والفلاسفة والباحثون في مجال الاتصال واللغة.

لقد تبيَّن أن الصمت هو نوع من خروج الصامت من منطق الأسباب، القائم على الاحتكام لقانون المادة، إلى قانون الروح، والاتصال بمسبب الأسباب والتوكل عليه؛ إذ هو الكافي بتجلّي قدرته على من يمدُد يده له، يدبر أمره دون التلفظ بكلمة واحدة. فالصمت في مقام المواجهة لمن يتوكّل على الله، هو القوة الحقيقية في الانسجام مع الحقيقة المطلقة، وتتحقق العبودية لله، والتوكل عليه، فتتجلى قدرته، وقد يبلغ هذا التجلي، إجراء المعجزات للمتوكّل عليه.

وليس ذلك بالأمر الهيِّن، لاسيما حين يرتبط بخوارق العادات والمعجزات، ولذلك جاء بعد صمت مريم -عليها السلام- تكلُّمُ عيسى عليه السلام في المهد صبيا، وإفحام الخصوم بمعجزة قوية ومهيمنة.

كما تبيّن أن "الإشارة" في مشهد إشارة مريم للنبي عيسى عليه السلام، كانت تنسجم مع فكرة الصمت، وتنسجم مع رفعة مقام السيدة مريم على قومها، وقد حقّقت لغة الإشارة معهم وظيفتها؛ إذ إنهم فهموا ما تريد تبليغه لهم من جهة، وأحسّوا بالغيظ والمهانة من جهة أخرى، واعتبروا ذلك أشنع من الخطيئة التي اعتقدوا أنها أتتها .

وهكذا، تكون اللغة الصامتة (الصمت والحركة)، أو لغة الجسد، جزء من العملية الاتصالية في القرآن الكريم، وهو جزء محفوفٌ بالأسرار والحكم، لاقى اهتماما بليغا لدى الفلاسفة قديما وحديثا، فلا أقلَّ من أن نعتنيَ بسبر أغواره، والتعرّف عليه أكثر، للاستفادة من ذلك في تعميق العملية الاتصالية التي هي عصب الحياة وقلبها النابض.

هوامش المصادر والمراجع:

1- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.(بيروت. لبنان: 2019، طبعة جديدة لونان)، المجلد 6 ، ص 24، ص 26 .
2- ينظر أحمد فؤاد الأهوائي، في عالم الفلسفة، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة. 1948م)، ص ص 44-45.
3- صالح خليل أبو أصبع. العلاقات العامة والاتصال الإنساني. دار النشر والتوزيع. (ط 1). ص 36.
4- ينظر عبد الله البهلول، في بلاغة الخطاب الأدبي بحث في سياسة العقول، مطبعة التسفير الفني، (صفاقس. تونس. ط1، 2007م)، ص 26.
5- أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، تح وشرح محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، (القاهرة. ط7. 1998م)، ص 78.
6- أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، الحيوان، دار الكتب العلمية، (بيروت. ط2. 1424ه)، ص78. ص 35.
7- أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، رسائل الجاحظ، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، (القاهرة. 1964م)، ج1، ص113.
8- أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، (مصر، ط 2، 1960)، ج 1، ص ص 76-78.
9- ينظر تزفيتان تودوروف، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء سلامة، منشورات توبقال للنشر، (الدار البيضاء. ط2. 1990م)، ص 31.
10- كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، مكتبة الأنجلو مصرية، (القاهرة. 1991م)، ص 79، ص 182.
11- سمير محمد حسين، الإعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام، عالم الكتب، (القاهرة، 1984م)، ص 96.
12- سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، دندرة للطباعة والنشر،(بيروت، لبنان، ط1، 1981م)، ص 7.
13- ينظر حسن عماد مكاوي، ليلى حسين السيد. الاتصال ونظرياته المعاصرة. (القاهرة، 2004) الدار المصرية اللبنانية. ص ص 27-28، ص 28.
14- مجموعة من المحققين تحت إشراف صالح بن عبد الله الشنقيطي، اليسير في اختصار ابن كثير، دار الهداة للنشر، (جدة، ط 1، 1426 ه)، ج16، ص 1108 .
15- محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق وتعليق أحمد عادل عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، (بيروت، لبنان، ط 1، 1993م)، ص 146.
16- محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، جامع البيان، تح أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، (ط1، 1420- 2000)، ج 16، ص 66.
17- فخر الدين الرازي، الفراسة، ترجمة وتقديم إبراهيم وهبة، مراجعة إبراهيم بيومي مدكور، الهيئة العامة المصرية للكتاب، (القاهرة، 1982م)، ص 94.
18- محمد العبد، العبارة والإشارة دراسة في نظرية الاتصال، مكتبة الآداب، (القاهرة. ط1، 2007م)، ص 142، ص 178.
19- محمد عيد عريب، علم لغة الحركة بين النظرية والتطبيق، دار الثقافة، عمان، (الأردن، ط1، 2010م)، ص 151.
20- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير تفسير القرآن، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع، (1984). ج 16. ص33.
21- ينظر سوزان الفليني. الاتصال ووسائله ونظرياته. دار النهضة العربية. . (القاهرة، 2005). ص 25.
22- ميشيل هارا لامبوس، اتجاهات جديدة في علم الاجتماع،لا ترجمة إحسان محمد الحسن، بيت الحكمة، (بغداد. ط1. 2001م)، ص 516.
23- مارتن هيدغر، في الفلسفة والشعر، ترجمة عثمان أمين، الدار القومية للنشر، (ليبيا. 1963م)، ص 32.
24- هادي نعمان الهيتي، اللغة في عملية الاتصال الجماهيري، المنظور الجديد، الموسوعة الصغيرة (412)، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد 1998م)، ص 8.
25- هادي نعمان الهيتي، إشكالية المستقبل في الوعي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، ط 1، 2003م)، ص 180.
26- جعفر آل ياسين، فلاسفة يونانيون من طاليس إلى سقراط، مكتبة الفكر العربي للنشر والتوزيع، (بغداد، ط3، 1985م)، ص 24.

الهوامش باللغة الأجنبية:

1- Gabriel Conesa. Le dialogue molieresque : étude stylistique. Presses universitaires de France 1983. P 448.

2- Le Breton David. Les passions ordinaires. Anthropologie des émotions. Armand Colin/Masson. Paris. 1998. P 32, P 35.

3- Dumouchel Paul. Emotions. Essai sur le corps et le social. Institut Synthélabo. Coll. « Les Empécheurs de penser en rond ». Le Pléssis-Robinson. 1999. P 185.

4- Watzlawick Paul. Helmick Beaven. et Jackson Don D. Une logique de la communication. Editions du Seuil. 1972. P 16.

5- Maryline Streep. Comment comprendre le langage secret des femmes. Les femmes vous envoient des signaux et des messages secrets.. Sachez les lire. Edi-Inter. Suisse. 2010. P8, P P 9-11.

هوامش من الدوريات والمجلات:

1- صلاح الدين الحافظ. حق الاتصال وحرية الإعلام. مجلة دراسة عربية. العدد 19. المركز العربي للدراسات العربية. القاهرة. 1979م. ص 13، ص12.

2- رشيد كهوس. سيرة أم عيسى السيدة مريم الصديقة عليها السلام. مجلة الداعي الشهرية. دار العلوم ديوبند. العدد 9-10. رمضان _ شوال 1437ه/ يونيو_ أغسطس 2016م.

3- عباس محمد رضا و مهدي عبد الأمير مفتن. مصطلح الصمت. مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية/ جامعة بابل. العدد 24. بتاريخ 2015. ص ص 211-223.

هوامش من الدوريات الأجنبية:

1- Arthur Schnitzler. Austrica. Cahiers universitaires d'information sur l'Autriche. Etudes réunies par Jacques Le Rider, Gilbert Ravy et Sigurd Paul Scheichl. Revue fondée par Félix Kreissler. Université de Rouen. Centre d'études et de recherches Autrichiennes. No 39.Décembre 1994. P 83.

2- Toastmasters International. Le language corporel : Chaque geste est parole. Comment maitriser la communication non verbale. Traduit de l'Américain par La Banque royale du Canadac et Le Comité de traduction District61. Version 1/2003. Article FR 201. P 2, P8...

هوامش من المواقع الإلكترونية:

1- باسم سليمان. الجسد.. اللغة الصامتة. بتاريخ 2011/01/04م. تاريخ التصفح: نوفمبر 2020. على الرابط: https://basemsoliaman.wordpress.com

2- أبو عبد المعز. المسيح ابن مريم وكلامه في المهد. ملتقى أهل التفسير .بتاريخ: 1435/10/25 - 2014/08/21. تاريخ التصفح: نوفمبر 2020. على الرابط: https://vb.tafsir.net/tafsir40284/#.Xjso4k9KjDc

3 -Upbility publications. Date de visite : Novembre 2020. Sur le lien : https://upbility.fr/blogs/news/la-communication-non-verbale

الهوامش:

[1]- الخطوط الكنتورية هي الشكل الفعلي لسطح الأرض من ارتفاعات يعبر عنها على الخرائط بخطوط تسمى (Contours)، وعادة ترسم خرائط كاملة لهذه الخطوط تسمي بالخرائط الكنتورية.

[2]- جزء من حديث رواه مسلم في كتاب الجمعة (867) باب (13) تخفيف الصلاة والخطبة. والنسائي في العيدين (189/188/3) باب كيفية الخطبة.

[3]- " الصِدِّيقة "على نحو" الفِعِّيلة "، من "الصدق"، وكذلك قولهم: "فلان صِدِّيق"، "فِعِّيل" من "الصدق"، ومنه قوله تعالى ذكره: وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ، فالشاهد هو وضع الصديقين مع الشهداء.